

تقدير موقف

إلى أين تتجه الأوضاع في إدلب؟

تطورات وتقلبات المشهد الميداني والسياسي منذ التحرير وحتى قرار تركيا بإدراج هيئة تحرير الشام كمنظمة إرهابية

طالب الدغيم

أيلول / سبتمبر 2018

إدراك RAK

FOR STUDIES & CONSULTATIONS ♦ للدراسات والاستشارات

2	مقدمة
4	أولاً. تطورات المشهد الميداني والسياسي في إدلب بعد التحرير:
4	المشهد الأمني والعسكري في إدلب:
5	الحالة المدنية و المؤسساتية والإدارية لإدلب:
6	المشهد السياسي ومشروع خفض التصعيد في إدلب:
7	المواقف الإقليمية والدولية من مصير محافظة إدلب:
9	ثانياً. السيناريوهات المحتملة لمستقبل محافظة إدلب:
9	سيناريو الزحف العسكري الروسي السوري الإيراني والسيطرة على إدلب:
10	سيناريو الاحتواء التركي السياسي والعسكري في إدلب:
14	خلاصة
15	مراجع

مقدمة:

تعددت الاحتمالات والتوقعات حول المصير الذي ينتظر قوى المعارضة السورية في محافظة إدلب، وسادت حالة من الرعب نتيجة موجة التصريحات المتتالية لمسؤولين غربيين وأمميين وروس وإيرانيين حول نوايا روسيا في السيطرة على إدلب وإنهاء المعارضة فيها. تلك التهديدات التي تصاعدت باطراد بعد سيطرة هيئة تحرير الشام على المحافظة في أواخر عام 2017، وكان من أبرزها تصريح وزير خارجية روسيا سيرغي لافروف: "إن عام 2018 هو عام القضاء على هيئة تحرير الشام (جبهة النصر سابقاً) في إدلب"¹. وكذلك تصريح لافروف الأخير في 29 آب/ أغسطس 2018 حين قال: "إن إدلب هي العضو المريض الذي يحتاج إلى بتر وتصفية"².

وكذلك ترددت التصريحات الإيرانية، فقد جاء تصريح مستشار المرشد الأعلى للثورة الإيرانية علي أكبر ولايتي مطلع العام الجاري، بأن: "قوات الحكومة السورية وحلفاؤها سيبدؤون بحملة عسكرية واسعة تهدف للسيطرة على إدلب".

وازدادت المؤشرات حول حملة عسكرية كبيرة مرتقبة مع تحركات ميدانية أخيرة، تضمنت قيام روسيا بعمليات قصف جوي طالت المناطق الحدودية لإدلب المحاذية لحماية "خان شيخون والتمانعة وجسر الشغور وسهل الروح"، وتزامنت مع محاولات تقدم لقوات النظام السوري من مدينة حلب نحو ريفها الغربي.

وفي المقابل، تصاعدت تصريحات وجهود الدبلوماسية الغربية بالتنسيق مع روسيا وتركيا لتفادي حدوث كارثة إنسانية في إدلب كالتى جرت في حلب والغوطة الشرقية ودرعا، وكان من آخر تلك الجهود خطاب البابا فرنسيس الذي دعا لحماية المدنيين في إدلب من حرب مدمرة.

ولكن، كيف يمكن لهذا الهجوم أن يحدث في مرحلة بلغت فيها التفاهات الدبلوماسية الروسية والإيرانية والتركية ذروتها؟ وما هو الموقف التركي في حال هُوجمت إدلب من قبل قوات النظام وروسيا؟ وبالتالي: ما أبرز السيناريوهات المتوقعة لمصير محافظة إدلب؟

¹فايز الدويري، معركة إدلب بين تعدد الأسباب وغموض النهايات، موقع الجزيرة نت، 16 يناير 2018، رابط: <http://bit.ly/2mJI4eg>
²محمد جمال الدين، وجبة الروس الأخيرة: هل يستطيع الأتراك منع مجزرة إدلب، موقع ميدان، 3 أيلول/ سبتمبر 2018، رابط: <https://bit.ly/2NdOMIW>

أولاً. تطورات المشهد الميداني والسياسي في إدلب بعد التحرير:

ظلت محافظة إدلب ومحيطها (ريفي حلب الغربي والشامي والأرياف الشمالية لحماية واللادقية) بعيدة عن سيطرة حكومة النظام السوري. وخضعت إدلب لسيطرة عدة فصائل من المعارضة السورية "هيئة تحرير الشام وأحرار الشام وفيلق الشام"، وفصائل إسلامية غيرها "حراس الدين وكتيبة التركستان الإسلامية"، ولكن أبرز تلك الفصائل قوّة ونفوذًا في الوقت الراهن، هي هيئة تحرير الشام "النصرة سابقًا".

1. المشهد الأمني والعسكري في إدلب:

فرضت التطورات العسكرية الأخيرة في محافظة ادلب ظروفًا جديدةً وتغيرات نوعية في مختلف الجوانب الاجتماعية والسياسية والأمنية. فقد كان تفكيك هيئة تحرير الشام للفصائل العسكرية واحدةً تلو الأخرى محوراً محافظة إدلب، والتي تعد أكبر قاعدة للمعارضة السورية، حيث كانت إدلب مركزاً رئيسياً لأكثر القوى العسكرية المعارضة في سورية، وعلى رأسها جبهة ثوار سورية وحركة حزم وصقور الشام وأحرار الشام، وهي التي بمجرد إسقاط هيئة تحرير الشام قياداتها وقواعدها في إدلب ضعف دورها و تقلصت أعدادها في باقي المحافظات السورية الأخرى. وقد زادت الأحداث تعقيداً بسبب تدخّل الوجود العسكري مع تزايد أعداد النازحين في إدلب، وبالتالي تزايد التحديات الأمنية والاقتصادية.

إذ يعيش السكان في محافظة إدلب من بداية عام 2018 وحتى الآن، حالةً من الفوضى والانفلات الأمني أحد أسبابها الأساسية المواجهة المستمرة بين هيئة تحرير الشام والفصائل الأخرى المتواجدة على الساحة خاصة حركة نور الدين زكي وأحرار الشام "الجبهة الوطنية للتحرير حالياً".

وقد ألفت الحالة العسكرية المتأزمة بظلالها على جميع جوانب الحياة اليومية، وأدى الصراع الفصائلي لظروف أمنية سيئة، إذ ارتفعت مستويات العنف بشكل غير مسبوق، وتزايدت نسبة التصفيات الجسدية الفردية، والسرقة والاختطاف للتجار والأكاديميين والأطباء في المحافظة.

فانهيار أو تفكك العديد من الفصائل أو أجزاء كبيرة منها، وتحول عدد غير قليل من الشباب والأعضاء السابقين لفصائل الجيش الحر وحركة أحرار الشام وغيرها من الفصائل إلى عاطلين عن العمل، وأيضاً الرعب الذي تركه الصدام بين العسكريين، بالإضافة إلى سلوكيات معينة انتهجتها هيئة تحرير الشام تجاه المدنيين، وتدخلها في أمورهم الحياتية، كل هذه الأسباب أدت إلى تفاقم الأوضاع المعيشية، وعدم الاستقرار السكاني، وخلق حالة من الرعب من المصير المجهول.

وكان من أبرز التطورات العسكرية والأمنية التي شهدتها إدلب مؤخراً: تشكيل تنظيم "حراس الدين" في فبراير/شباط 2018 بقيادة أبو همام الشامي، الذي أعلن

بيعته لتنظيم "القاعدة". ويبلغ تعداده نحو 2500 مقاتل تقريبًا، وتتوزع عناصره في ريف إدلب الجنوبي الغربي وجنوبي منطقة جسر الشغور. وضم التنظيم: "فصائل حراس الشام، وسرايا الساحل، وسرية كابل، وجند الشريعة، وجند الملاحم، وجيش البادية، وجند الأقصى، وقيادات من تنظيم "القاعدة" في مجلس الشورى الذي يضم: أبو جليبيب طوباس، وأبو خديجة الأردني، وسامي العريدي، وبعض القيادات السابقة في جبهة النصرة"، وبعد ذلك اندمج حراس الدين مع أنصار التوحيد ليشكلوا "حلف نصرة الإسلام"، وأعلنوا أن هدفهم الوحيد هو إقامة دين الله تعالى ودفع العدو الصائل، وإقامة شرع الله "في أرض الشام". ورغم التزام هذا الحلف موقف الحياد في الاقتتال الذي نشب بين "هيئة تحرير الشام" و"جبهة تحرير سورية"، ولكن هذا لم يمنع من حدوث بعض الاشتباكات سواء مع الهيئة أو الفصائل الأخرى، كونه يقاوم جميع التيارات والقوى الأقل تشددًا منه فكريًا وسياسيًا، ونظرًا لأن هذا الحلف يتكون بمعظمه من الأجانب، ولا يتفق مع أي أدوار سياسية تقوم بها تركيا أو الجهات السياسية والفصائل المناصرة لها، وهو الموقف العدائي نفسه الذي سيتخذه من هيئة تحرير الشام في حال استجابت لأي هدنة مع النظام أو مشروع سياسي بإدلب. وأخيرًا، قامت عناصر التنظيم ببعض عمليات اغتيال وخطف للناشطين ولأعضاء منظمات وأطباء ومولوا نشاطاتهم من مردود عمليات مبادلة المخطوفين بالمال، والسطو العام³.

2. الحالة المدنية و المؤسساتية والإدارية لإدلب:

شكّل تحرير مدينة إدلب في 2015، فرصة لاستقطاب أبناء المحافظات الأخرى، ولنشاط منظمات المجتمع المدني الأهلية والدولية، ثم الحكومة المؤقتة، ومن ثم حكومة الإنقاذ التي شكلتها هيئة تحرير الشام بداية عام 2018.

ولكن سرعان ما عانى المشهد المدني والإداري في محافظة إدلب من انقسام وتشظّي كبيرين، أسهم فيهما التداخل بين الظروف السياسية والأمنية في المحافظة، كان من أبرز مظاهره تشكيل مجالس محلية غير تابعة للحكومة المؤقتة. ومما زاد من تعقيد المشهد أكثر هو تشكيل "حكومة الإنقاذ" من قبل شخصيات محسوبة على تنظيم "هيئة تحرير الشام"، كل ذلك أسهم في تعدد المرجعيات السياسية والإدارية وتضاربها. فبحسب تقرير مسح ميداني أولي أجراه مركز عمران للدراسات مع وحدة المجالس المحلية بين 8 أبريل/نيسان 2018 و15

³عمار قحف، فرص الاحتواء والسيطرة على إدلب في مسارات الأزمة السورية، مركز الجزيرة للدراسات، 24 مايو 2018، رابط: <https://bit.ly/2s95y01>

مايو/أيار 2018 في محافظة إدلب، فإن 59% من المجالس المحلية تُصنّف نفسها بأنها تتبع إدارياً للحكومة المؤقتة مقابل 7% تُصنّف نفسها تابعة لحكومة الإنقاذ⁴. ولم تفلح محاولات هيئة تحرير الشام تمدين سيطرتها على إدلب، وكان وضعها على لوائح الإرهاب أمر اشتركت به معظم الدول وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية وتركيا، حيث اعتبر المبعوث الأمريكي الخاص إلى سورية مايكل راتي في بيانه في 2 آب/ أغسطس 2017، بأن محاولات هيئة تحرير الشام، بالاقتداء وراء إدارة مدنية، أساليب مكشوفة هدفها الأول الالتفاف على التصنيف". وهذا أعطى التبرير أحياناً الشرعية لقصف المراكز الطبية والإغاثية والدفاع المدني في إدلب بين الحين والآخر، ومع تدهور الوضع الأمني زاد معدل الاعتداءات والاغتيالات للعاملين في المجال المدني. وهو ما دفع أغلب المنظمات الإنسانية الدولية لمغادرة إدلب، كل ذلك زاد الأوضاع الإنسانية والمعيشية في إدلب سوءاً وتدهوراً⁵.

3. المشهد السياسي ومشروع خفض التصعيد في إدلب:

اتفقت روسيا وتركيا وإيران في مؤتمر أستانا (كازاخستان) على تثبيت خطة "خفض التصعيد" في محافظة إدلب في أيار/ مايو 2017، إلا أن الأسابيع التي تلت هذا الاتفاق، حصلت فيها خروقات عديدة ارتكبتها قوات التحالف الروسي السوري الإيراني⁶.

بعد اجتماع "أستانا 6" في 15 أيلول/سبتمبر 2017، أصبحت محافظة إدلب رسمياً جزءاً من اتفاقية خفض التصعيد والتوتر، والتي تضمنت عملية "تقاسم الأدوار والنفوذ"، ولكن لم تُنجز الخرائط الميدانية، وبقي الخلاف على بعض النقاط سيما من الجانب الإيراني الذي أصر على تواجد قوات قريبة له على نقاط المراقبة في إدلب، بينما أصرت تركيا على إمساك الملف الأمني بمفردها. وسمح هذا الخلاف للحلف الروسي الإيراني مع النظام للتقدم بغطاء جوي روسي في مناطق بريف حماة وإدلب بعمق وصل حتى 28 كيلو متر،

وصولاً إلى كانون الأول/ يناير 2018 حيث تم وصل مناطق سيطرة النظام وحلفائه في حماة مع سنجار ومطار أبو الظهور العسكري شرق إدلب..

⁴قحف، المرجع السابق.

⁵أبرز المنظمات التي توقفت عن العمل في محافظة إدلب بعد سيطرة هيئة تحرير الشام على المحافظة، منظمة GUZ الألمانية، التي كانت تغطي نفقات عدد من المراكز التربوية في محافظة إدلب بل وشمال سورية، وكذلك تقلص نشاط بعض المنظمات الإغاثية مثل منظمة people of need، التي تهتم بالمشاريع الإغاثية في مناطق الشمال السوري، وآخرها منظمة الأجاكس البريطانية التي تدعم قوات الشرطة المدنية. حوار مع رئيس المجلس المحلي في بلدة جرجانز، دور المنظمات في تغطية الاحتياجات الإنسانية للسكان في معرة النعمان، 23 شباط/فبراير 2018.

⁶الشبكة السورية لحقوق الإنسان، تقرير: قوات الحلف السوري الروسي تدمر دموياً اتفاقيات أستانا، 29 أيار/ مايو 2017، رابط:

<https://bit.ly/2LQWYdj>

في 18 مارس/آذار 2018، تمكنت القوات التركية إلى جانب فصائل الجيش السوري الحر في إطار عملية غصن الزيتون، من اقتحام معازل قوات سورية الديمقراطية pyd في مدينة عفرين، ثم بدأت تركيا بنشر نقاط مراقبة عسكرية على أطراف مناطق سيطرة المعارضة واحتكاكها مع قوات النظام بناء على اتفاق أستانا، وكان من نتائج ذلك عودة آلاف العائلات التي هجرها القصف الروسي في أرياف إدلب إلى منازلها⁷.

تشير التقارير الميدانية بوضوح إلى أن روسيا وحلفاؤها لم يلتزموا بالاتفاق، فقد وثق تقرير الشبكة السورية لحقوق الإنسان: "حصار عام على بدء خفض التصعيد في محافظة إدلب في 13 حزيران/ يونيو 2018"، معلومات حول 6 مجازر ارتكبتها الحلف الروسي في مناطق مختلفة من إدلب، وقدم إحصائية عن مقتل 1109 مدنيين بينهم 255 طفلاً. و بموجب التقرير، فقد تم توثيق ما لا يقل عن 233 حادثة اعتداء على مراكز حيوية مدنية، بينها 34 مركزاً طبياً، و50 مدرسة، و16 سوفاً شعبياً. وكذلك سجل التقرير 752 برميلاً متفجراً ألقتها النظام السوري وروسيا على إدلب، وذلك في غضون عام منذ دخول اتفاقية خفض التصعيد حيز التنفيذ. وأكد التقرير أن اتفاقية خفض التصعيد لم تقدم شيئاً حقيقياً في وقف الانتهاكات المتنوعة، وخلافاً لذلك، ارتفعت معدلات القتل بعد مرور قرابة أربعة أشهر فقط على بدء اتفاق خفض التصعيد في إدلب العام الماضي⁸.

4. المواقف الإقليمية والدولية من مصير محافظة إدلب:

تناولت معظم تصريحات الدول الغربية، وحتى المبعوث الدولي لسورية ستيفان دي مستورا، ذكر محافظة إدلب، على أنها موطن للجماعات الإرهابية. وبالرغم من تركيز الولايات المتحدة الأمريكية اهتمامها في سورية بالقضاء على تنظيم الدولة واحتواء النفوذ الإيراني، وتأكيدات واشنطن المتكررة برفض هجوم جديد على إدلب، غير أن الإشارة الأوضح حول الرؤية الأمريكية لإدلب، جاءت في تصريحات الجنرال الأمريكي ماغورك الذي قال في خطاب متلفز في معهد الشرق الأوسط في واشنطن في تموز/ يوليو 2018: "إن إدلب أكبر معقل لتنظيم القاعدة في العالم بعد أحداث 11 أيلول/ سبتمبر 2001"، وذلك لا يثير هواجس الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا فقط، بل حتى الصين التي تخشى من انتشار آلاف الإيغور ضمن "الجيش الإسلامي التركستاني" في ريف إدلب وشمال اللاذقية.

⁷ "لحظة دخول الجيش التركي إلى بلدة جرجناز في محافظة إدلب"، تركيا الآن، 15 شباط/ فبراير 2018، رابط:

<http://bit.ly/2C5Y0BV>

⁸ الشبكة السورية لحقوق الإنسان، حصار عام على بدء خفض التصعيد في محافظة إدلب، 13 حزيران/ يونيو 2018، رابط:

<https://bit.ly/2Q1nDY0>

ومن ناحية الأحداث الميدانية، فإن بسط تحالف روسيا وإيران والنظام، نفوذه على حلب في أواخر عام 2016، وتوسيع سيطرته في حمص وريف دمشق ودرعا في ظل خفض التصعيد والمصالحات المحلية، شكل دافعاً للإقدام أكثر للحشد للمعركة الأخيرة في إدلب بهدف انتزاعها، ورافق الاستعداد الروسية، دعوة المبعوث الأممي ستيفان دي مستورا لإجلاء المدنيين من المحافظة، وتأكيد وجود ما لا يقل عن عشر آلاف عنصر من عناصر "جبهة النصرة" في إدلب يشكلون خطراً على الحل السياسي السوري. وقد واجهت تصريحاته، مظاهرات حاشدة في غالبية مناطق إدلب و أرياف حلب وحماة، تنديداً بالصمت الدولي وبتصريحات المبعوث الخاص دي مستورا، ورفضاً للحملة العسكرية التي يروج لها النظام وروسيا وإيران على إدلب.

ثانياً. السيناريوهات المحتملة لمستقبل محافظة إدلب:

إدلب اليوم عند مفترق طرق قايين، ويمكن الحديث بشكل أساسي عن سيناريوهين يتصدران المشهد الميداني والسياسي في إدلب، وهما:

1. سيناريو الزحف العسكري الروسي السوري الإيراني والسيطرة على إدلب:

يرجح المقتنعون بهذا السيناريو، بأن روسيا تحاول التوصل إلى تسوية سياسية مع تركيا بشأن إدلب عبر حوارات ولقاءات واتصالات شبه يومية، بموجبها ستسحب القوات التركية من نقاط المراقبة المتقدمة في المحافظة، وسيتم إقناع فصائل المعارضة بالانخراط في اتفاق مصالحة على غرار ما وقع في مناطق وبلدات درعا. ليصبح المجال ممهداً لفتح الطريق الدولية الواصلة بين تركيا و الأردن، بإشراف كل من الشرطة التركية والروسية، حيث تنشر مخاطر أمنية تمتد على طول الطريق، وفق خريطة تم الاتفاق عليها لنقاط التماس في الشمال السوري، و لإنجاح تلك الخطة الروسية، تعمل تركيا على إقناع المعارضة بتسليم السلاح الثقيل بإشراف مشترك بينهما. ووفق هذه الخطة الروسية، فإن اتفاقات أستانا خلقت متطلبات "الأمان النسبي" و"تخفيف التصعيد" من طرف المعارضة السورية في إدلب بضغط من تركيا، مما حقق انتصارات ميدانية متسارعة للحليف الروسي السوري الإيراني في حلب ودمشق ودرعا⁹.

ويتضمن هذا السيناريو أيضاً قيام روسيا وميليشيا النظام وإيران باقتطاع مساحات جديدة من إدلب كما جرى في حالة ريف إدلب الجنوبي التي نتج عنها وصول النظام السوري وحلفاؤه إلى سنجار وأبو الظهور. وقد تكون المناطق المرشحة للدخول في السيطرة الروسية هي:

- منطقة الطريق الدولي الواصلة بين حلب وحماة (بوابة مورك وأبو دالة).
- منطقة جسر الشغور القريبة من الساحل.
- منطقة سهل الغاب لتأمين منطقة الساحل المهمة بالنسبة لروسيا¹⁰.

ومن أبرز أنصار هذا السيناريو المفكر السياسي ألكسي خلبينيكوف، وهو باحث متخصص في قضايا الشرق الأوسط في المجلس الروسي للشؤون الدولية، وباحث أول في مجموعة Eurasia Strategies الاستشارية الروسية، الذي يؤكد بأن الصراع في سورية يتبع نمطاً مفهوماً في هذه الفترة. فقد تم إلغاء مناطق خفض

⁹مركز عمران للدراسات الاستراتيجية، اتفاق مناطق تخفيف التوتر: السير باتجاه تشكيل المشهد السوري، تقدير موقف، 9 مايو 2017، <https://bit.ly/2ovY5pJ> رابط: مركز عمران للدراسات الاستراتيجية، رابط: <https://bit.ly/2N8BDAU>

¹⁰عباس شريفة، تقدير الموقف بالنسبة للشمال السوري بعد درعا، شبكة نداء سورية، 10 يوليو 2018، رابط: <https://bit.ly/2N8BDAU>

التصعيد تدريجيًا، وقامت قوات التحالف الروسي، بتنظيم هجمات خوّلت الروس عقد صفقات لإجلاء عدد كبير من المسلّحين إلى محافظة إدلب. ونتيجةً لذلك، بقيت إدلب المنطقة الوحيدة التي لم تسيطر عليها الحكومة السورية من بين مناطق خُفض التصعيد، وتتمركز فيها مجموعات المعارضة المسلّحة والجماعات الإرهابية، إضافةً إلى المدنيين. فأصبحت إدلب، منطقة رمادية ومقلقة بالنسبة إلى الروس، حسب رأيه¹¹.

وذلك الموقف يتبناه تشارلز ليستر الباحث في معهد الشرق الأوسط في واشنطن، ومدير مشروع المعهد لمكافحة الإرهاب، حين يقول: "نظرًا إلى ما حدث سابقًا في أماكن أخرى من سورية، أستبعد ألاً يلتزم نظام الأسد بكلامه، وأن يقوم في نهاية المطاف بشنّ حملة ضخمة في إدلب. وسيكون ذلك على الأرجح مسبقًا بمجموعة من اتفاقيات "مصالحة" على أطراف مناطق المعارضة، أو قد يتزامن معها، وهذه العملية بدأت تسير على قدم وساق"¹². وربما يعزز هذا السيناريو - حسب رأي المقتنعين به - كثرة الحديث عن التنسيق بين النظام والقاعدة الروسية في حميميم مع بعض شخصيات تروج للمصالحة في عدة مناطق من إدلب سرًا، وهو الأمر الذي ظهر للعلن مؤخرًا، حيث أُلقت قوات المعارضة القبض على عدد كبير من هؤلاء والذين باتوا يعرفون باسم (الضفادع) في أوساط المعارضة.

وبنظرة تحليلية، فإن روسيا لن تحاول أن تقوض علاقاتها وتحالفها مع أنقرة لأجل منطقة إدلب وهي التي لا تقع ضمن أولوياتها، وهي التي تشكل عبء من نواحي أمنية وسكانية واقتصادية إضافية على روسيا مستقبلاً، إنما ستحافظ موسكو على العلاقة القوية مع تركيا وتؤمن لها الغطاء السياسي الدولي لأي عمل مرتقب في إدلب. وفي هذه الحالة، فإن إدلب تمثل لتركيا لا لروسيا، امتدادًا استراتيجيًا لحدودها الجنوبية، ومنطقة نفوذ تتوج بها جهودها الميدانية بعد عمليتي درع الفرات وغصن الزيتون، وهو ما يبزر نشرها لقوات كبيرة في نقاط المراقبة العسكرية، مما يدفعنا لطرح السيناريو الثاني.

2. سيناريو الاحتواء التركي السياسي والعسكري في إدلب:

بدا الأتراك إثر عمليات درع الفرات ضد تنظيم الدولة، وعمليات غصن الزيتون ضد قوات سورية الديمقراطية "pyd" وإضعاف قوتها شمال حلب، حريصين على تقديم نموذج مدني جديد في سورية شعاره: الأمن والتعايش والتنمية؛ بهدف إزالة الآثار السلبية الناجمة عن المرحلة السابقة، وحاولت تركيا إشراك جميع المكونات العربية والتركمانية والكردية في إدارة منطقة عفرين وشمال حلب، وطرحت خطاً

¹¹Michael Young, "A regular survey of experts on matters relating to Middle Eastern and North African politics and security", Middle East Insights from Carnegie, August 09, 2018: <http://ceip.org/2018HiHG>

¹² Young, op.cit.

أولية لإعادة الإعمار والتنمية، عبر سياسة تدريجية، تمثلت في إعمار المدارس والمساجد وإنشاء فروع الجامعات التركية، وتنظيم المجالس المحلية والقيام بحملات الإغاثة، وتنظيم الزيارات للشخصيات العسكرية والفنية والرياضية لتلك المنطقة.

ويعتبر القائلون بهذا السيناريو، أن إدلب تقع في قلب المعادلة الاستراتيجية والمصالح الحيوية لتركيا في سورية، ويرون بأن تركيا بدأت تدخلها الحقيقي في إدلب ليس في نشر نقاط المراقبة وتعزيزها بقوات إضافية فحسب، بل في إعلانها الرسمي بتصنيف هيئة تحرير الشام كمنظمة إرهابية¹³، ولذلك يرون بأن تركيا ستبدأ، سواء بالتنسيق مع روسيا جواً، أو بتدخل منفرد، وبدعم عناصر الجيش السوري الحر "الجبهة الوطنية للتحرير والجيش الوطني الحر" في إدلب، بتنفيذ عملية عسكرية برية تنطلق من نقاط المراقبة ومنطقة عفرين، وبموجب خطة مرحلية (أشبه بعملية جراحية قريبة من حالة عفرين)؛ تُنهي فيها سيطرة هيئة تحرير الشام على إدلب، عبر تحييد العناصر المتطرفة بالهيئة، ودمج السوريين في الهيئة في مكون عسكري ومدني، يتناسب مع تطلعاتها المستقبلية في سورية.

وبالنسبة لموقف المكونات الاجتماعية في إدلب فهي في أغلبها تساند الانتشار التركي، حيث لاقى الدخول التركي ترحيباً شعبياً واسعاً، وذلك في المظاهرات التي احتشدت بالقرب من نقاط المراقبة أو التي استقبلت الأرتال العسكرية التركية في طريقها. وبدورها عملت تركيا على تأمين تواصل مباشر ومستمر بين قيادتها في إدلب ومجالس الإدارة المحلية والجمعيات الإنسانية والفعاليات الاجتماعية والاقتصادية فيها. وبذلت جهودها لتوحيد "الجيش الوطني الحر" التابعة للحكومة المؤقتة مع "الجبهة الوطنية للتحرير" في اجتماعات مكثفة بأنقرة، لتشكيل قوة إسناد عسكرية تجابه بها أي طارئ جديد في الشمال السوري.

ولعل من أبرز أنصار السيناريو التركي هو الباحث الأول في المركز الوطني للبحث العلمي في واشنطن والزاثر في مركز كارنجي لدراسات الشرق الأوسط توما بييريه، الذي رأى: "أنه حتى لو شنت قوات الحليف الروسي والإيراني والسوري هجمات محدودة النطاق تستهدف أطراف محافظة إدلب، ولكن اعتبر أن تركيا الخائفة من موضوع اللاجئين لديها، تمتلك مقدرات وإمكانيات عسكرية لعرقلة هجوم النظام بشكل مباشر أو غير مباشر، وتبدو على الأرجح مستعدة لفعل ذلك نظراً إلى الرهانات التي تواجهها"¹⁴.

وتشاركه رأيه الباحثة الزائرة في مركز كارنجي للشرق الأوسط والمختصة بالشأن السوري هديل الصيداوي، التي قالت: "بقدر ما قد يرغب النظام السوري في الإفادة من زخم الانتصار الذي حققه في جنوب غرب سورية، يبقى أن الوضع في إدلب أشدّ

¹³ رويترز، تركيا تصنف هيئة تحرير الشام في سورية منظمة إرهابية، 31 آب/ أغسطس 2018، رابط: <https://bit.ly/2wyBxZ6>.

¹⁴ Young, op.cit.

تعقيداً بكثير. فلدَى كلٍّ من روسيا، في المدى القصير على الأقل، وتركيا مصلحة في تفادي التورّط في عملية عسكرية شاملة". وتستدل بكلام المبعوث الروسي إلى سورية، ألكسندر لافرنتييف، مؤخراً: "لن يكون وارداً في الوقت الحاضر شنّ هجوم واسع على مدينة إدلب"¹⁵.

ويمكن سرد العديد من المؤشرات والدلالات التي ترجح السيناريو الثاني "التركي"، وأبرزها:

1. التأييد الشعبي الكبير الذي تتمتع به تركيا بين الفصائل العسكرية السورية وغالبية السكان في إدلب.

2. رغبة روسيا بالمحافظة على تحالفها القوي مع تركيا، و محافظة إدلب لا تدخل في حسابات الروس الأمنية ولا السياسية، نظراً للحالة الأمنية والاجتماعية المتشابكة بإدلب ومحيطها، ولأن التوافقات مع تركيا جعلت إدلب مكسباً لأنقرة دون غيرها من الأطراف. وهذا يعززه الرفض الغربي بدخول قوات روسيا والنظام السوري وإيران لإدلب، التي يتجمع فيها مئات الآلاف من السوريين الذين يتهيئون للنزوح الجماعي إلى تركيا ومن ثم أوروبا في حال دخل النظام للمنطقة، وبناء على هذا، تفضل روسيا حلّاً طويل الأمد مع روسيا، يمكنها من الكسب السياسي في جنيف، وبالمقابل، يعطيها مرونة في مواجهة العقوبات الغربية، والتحديات الإقليمية خاصة في شرق أوروبا ومنطقة المتوسط.

3. انتشار القواعد العسكرية ونقاط المراقبة التركية على جميع أطراف إدلب، والتي عززتها أنقرة بحشود عسكرية إثر التهديدات الأخيرة من روسيا والنظام، وهو ما قد يدفع تركيا لاستخدام الرد العسكري ضد النظام السوري وميليشياته، كما فعلت ذلك مع تقدم قواته باتجاه عفرين، ومحاولة مساندة قوات سورية الديمقراطية "pyd" في معاركها ضد تركيا.

4. نقل سكان القرى الشيعية في إدلب (كفريا والفوعة) الواقعتين في شمال إدلب إلى مناطق سيطرة النظام السوري في مدينة حلب، عبر حماية تركية في 30 نيسان/ أبريل 2018. حيث كانت عملية إخراج سكان هاتين المدينتين ضمن اتفاق سُمي باتفاق المدن الخمس (مضاي الزبداني وبقين وكفريا والفوعة)، والذي رعته إيران وقطر بمباحثات سرية بينهما¹⁶، وهو يعتبر من أكثر الاتفاقات الغامضة في الأزمة السورية، ورآه كثيرون بأنه عملية مبادلة المناطق بين السكان، لخلق تجانس اجتماعي وفكري، حسب تصريح الأسد نفسه.

¹⁵ Young, Ibid.

¹⁶ عنب بلدي، كفريا والفوعة. الرقم الصعب في معادلة إدلب، موقع عنب بلدي أونلاين، 30 نيسان/ أبريل 2018، انظر: <https://bit.ly/2NPD97V>

5. تعتبر أنقرة أن بقاءها في إدلب له أهمية على الأمن القومي التركي والإقليمي، بسبب المخاوف التركية من احتمال أن توفر روسيا لكردستان العراق ممراً تجارياً نحو البحر المتوسط، يُصدر من خلاله نפט الإقليم إلى أوروبا في ظل الحصار الإقليمي على كردستان، حيث وقعت شركة روسنفت النفطية الروسية في حزيران/ يونيو 2017، اتفاقية لتقاسم إنتاج 5 مناطق نفطية في كردستان، باستثمارات تجاوزت الـ 400 مليون دولار، وبحال السيطرة الروسية الكاملة على سورية ستتحكم بورقة صادرات نפט كردستان عبر سورية، مما يؤثر على الواقع السياسي والاقتصادي للإقليم¹⁷.

6. قانونياً، تستطيع تركيا إقناع المجتمع الدولي بإمكانية التدخل العسكري المباشر للقضاء على هيئة تحرير الشام في إدلب وملء الفراغ الأمني بالمحافظة، ليس فقط بسبب خوفها من تدفق المزيد من اللاجئين عبر حدودها بل الخوف من دخول المجموعات "المتشددة"، التي تنتشر بالمئات في الشمال السوري.

¹⁷مركز جسور، الوجود التركي في إدلب إلى أين: تقدير الموقف، 30 يوليو 2018، رابط: <https://bit.ly/2Pt7FF7>

خلاصة:

تعيش محافظة إدلب على مفترق طرق ومرحلة مصيرية من تاريخها، فإما أن تخضع لحرب مفتوحة وسيناريو زحف قوات النظام السوري وحلفائه باتجاه المحافظة بحجة محاربة التطرف والجماعات الإرهابية كما تصرح روسيا، وهذا السيناريو الأسوأ، وسيؤدي إلى أزمة إنسانية كارثية، وينتج عن هذا الأمر انقراض عقد التحالف الروسي التركي الإيراني، وعودة تركيا للصف الغربي في تنسيقها بالقضايا السياسية والأمنية الخارجية، أو قد تكفل الجهود الميدانية والسياسية التركية بالنجاح، وربما تساهم بإعادة الأمن والتنمية لإدلب، ريثما ينضج الحل السياسي، ووفق هذا السيناريو، ستعود سورية لتكون جزء من الدولة السورية الجديدة (الجمهورية الثالثة) ولكن بحل سياسي لا بخيار عسكري.

وهكذا، فإن تركيا أمام خيارين، إما أن تحل الجماعات المصنفة على أنها إرهابية في إدلب وخاصة هيئة تحرير الشام، وإما أن تقوم بعمليات عسكرية (جوية و برية) مركزة على أهداف محددة ضد هذه الجماعات بغرض القضاء عليها، ومهما يكن فإن مصير إدلب سوف يتضح أكثر في قمة طهران في 7 أيلول/سبتمبر 2018، التي سيحضرها الرؤساء، الروسي فلاديمير بوتين، والإيراني حسن روحاني، والتركي رجب طيب أردوغان¹⁸.

¹⁸ أمين العاصي، إدلب تنتظر طهران: القمة الثلاثية تحسم مصير المحافظة، العربي الجديد، إستانبول، 3 أيلول/سبتمبر 2018، رابط: <https://bit.ly/2wDOL8p>

مراجع:

1. Michael Young, "A regular survey of experts on matters relating to Middle Eastern and North African politics and security", **Middle East Insights from Carnegie**, August 09, 2018: <http://ceip.org/201HiHG>
2. أمين العاصي، إدلب تنتظر طهران: القمة الثلاثية تحسم مصير المحافظة، **العربي الجديد**، إستانبول، 3 أيلول/ سبتمبر 2018، رابط: <https://bit.ly/2wDOL8p>
3. حوار مع رئيس المجلس المحلي في بلدة جرجناز، حول دور المنظمات في تغطية الاحتياجات الإنسانية في معرة النعمان الآن، 23 شباط/ فبراير 2018.
4. الشبكة السورية لحقوق الإنسان، تقرير: قوات الحلف السوري الروسي تدمر دموياً اتفاقيات أستانا، 29 أيار/ مايو 2017، رابط: <https://bit.ly/2LQWYdj>
5. الشبكة السورية لحقوق الإنسان، حصاد عام على بدء خفض التصعيد في محافظة إدلب، 13 حزيران/ يونيو 2018، رابط: <https://bit.ly/2Q1nDY0>
6. رويترز، تركيا تصنف هيئة تحرير الشام في سورية منظمة إرهابية، 31 آب/ أغسطس 2018، رابط: <https://bit.ly/2wyBxZ6>
7. عباس شريفة، تقدير الموقف بالنسبة للشمال السوري بعد درعا، **شبكة نداء سورية**، 10 يوليو 2018، رابط: <https://bit.ly/2N8BDAU>
8. عمار قحف، فرص الاحتواء والسيطرة على إدلب في مسارات الأزمة السورية، مركز الجزيرة للدراسات، 24 مايو 2018، رابط: <https://bit.ly/2s95y01>
9. عنب بلدي، كفريا والفوعة.. الرقم الصعب في معادلة إدلب، موقع عنب بلدي أونلاين، 30 نيسان/ أبريل 2018، انظر: <https://bit.ly/2NPD97V>
10. فايز الدويري، معركة إدلب بين تعدد الأسباب وغموض النهايات، موقع الجزيرة نت، 16 يناير 2018، رابط: <http://bit.ly/2mJl4eg>
11. لحظة دخول الجيش التركي إلى بلدة جرجناز في محافظة إدلب"، تركيا الآن، 15 شباط/ فبراير 2018، رابط: <http://bit.ly/2C5Y0BV>
12. محمد جمال الدين، وجبة الروس الأخيرة: هل يستطيع الأتراك منع مجزرة إدلب، موقع ميدان، 3 أيلول/ سبتمبر 2018، رابط: <https://bit.ly/2NdOMIW>
13. مركز جسور، الوجود التركي في إدلب إلى أين: تقدير الموقف، 30 يوليو 2018، رابط: <https://bit.ly/2Pt7FF7>
14. مركز عمران للدراسات الاستراتيجية، اتفاق مناطق تخفيف التوتر: السير باتجاه تشكيل المشهد السوري، تقدير موقف، 9 مايو 2017، مركز عمران للدراسات الاستراتيجية، رابط: <https://bit.ly/2ovY5pl>